البابُ الثاني: علمُ البيان

البيانُ **لُغَةً** معناه الكشف والوضوح، والظهور؛ تقول: بانَ الصبحُ لكلّ ذي عينين، أي: ظَهَرَ وانتشرَ ضوءُهُ، وتقول: بانَ الحقُّ من الباطل، أي: وَضُحَ وتميّز.

وفي **الاصطلاح**: (**هو التعبيرُ عن المعنى الواحد بِطُرُقٍ مُختلفةٍ، بعضُها أوضحُ من بعضٍ، وأكبرُ تأثيراً من بعضٍ، ولكلٍّ من هذه الطرق خصوصية في تصويرِ المعنى وتقديمِه ليست في غيرها**)، فإذا أرادوا التعبير عن معنى **الكرم** مثلاً، عبَّروا عنه بطُرقٍ علم البيان الحاوية للصور الأدبية، فلا يقولون في التعبير عن هذا المعنى-مثلاً-: (**فلانٌ كريمٌ**)؛ لأنَّ هذه العبارة ليست بياناً عندهم لخلوّها من الصور الأدبية كالتشبيه والاستعارة والكناية وأنواع المجاز الأُخرى، لذا فإنَّهم يعبرون عن هذا المعنى بإدخال هذه الصور الأدبية التي أشرنا إليها، وهي: (**التشبيه والاستعارة، والكناية، وأنواع المجاز الأخرى**)، فيقولون: (**أنت بحرٌ**)، تشبيهاً للممدوح بالبحر في سِعَةِ الجُود؛ لأنّ صورة البحر في الأذهان تُوحي بالكرم، ولأنَّ العربَ عندما تُريدُ أن تمدحَ رجلاً، وتصفه بالكرم، فإنَّها تُشَبِّهُهُ بالبحر، قال الشاعر:

كالبحر تقذفُ للقريبِ جَواهِراً ... جُوداً وتبعثُ للبعيدِ سحائبا

ويقولون في التعبير عن معنى الكرم أيضاً: (**ليسَ لِجُودِكَ ساحِلٌ**)، يُريدون مدحه بالكرم أيضاً، فعبَّروا عن هذا المعنى بطريق الاستعارة المَكْنِيَّة؛ لأنَّ أصل هذا الكلام مأخوذٌ من قولهم: (**جودك كالبحر**)، فقولهم: (**ليسَ لِجُودِكَ ساحِلٌ**) أرادوا به تشبيه الرجل الكريم بالبحر الذي ليس له ساحل لسعته، فالوجه الجامع بين الطرفين هو السعة في كلٍّ منهما، (**سِعَةُ عطاءِ الرجل الكريم، وسِعَةُ البحر**).

ويقولون في التعبير عن هذا المعنى-أيضاً- بأُسلوب الكناية: (**جَرَى نَهْرُ أَنْعُمِكَ**)، فهذه كنايةٌ عن المدح بصفة الكرم، ويقولون: (**دعاني نداك**) يُريدون مدحه بالكرم أيضاً بأسلوب المجاز العقلي؛ لأنَّ (**الندى**) معناه الكرم، والكرمُ سببٌ في مجيء المتكلم إلى المخاطب، فهو مجازٌ عقليٌ علاقته السَّببية، ويقول الشاعر:

عَلَا فما يَسْتَقِرُّ المالُ في يَدِهِ ... وكيف تُمسِكُ مَاءَ قِمَّةُ الجبلِ ؟!

يُريدون مدحه بالكرم أيضاً بأسلوب التشبيه الضمني مُشَبِّهين علوّ كف الممدوح وسموه-لكرمه- بعلو الجبل (**قمة الجبل**)، وخُلُوّ يدهِ من المال كخُلُوِّ قِمَّةِ الجَبَلِ من الماء،؛ إذ هي لا تُمسِكُ الماءَ خِلْقَةً، ويُعبّرون عن معنى الكرم بقولهم: (**فلانٌ يُعطي باليمين**)، كناية عن كرمه، وسعة جوده؛ لأنَّ اليد اليُمنى أشرفُ من اليسرى عُرفاً، ويقولون: (**فلانٌ يُعطي بكلتا يديه**)، وهذه العبارة كناية عن غاية الجود والإحسان، وعليه قوله-تعالى-: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ**﴾[المائدة:٦٤]، إذ إنَّ هذا الجزء من الآية هو كناية عن مُنتهى الجُود والفضل والإحسان بما لا شبيهَ لهُ.

وأبوابُ علم البيان منحصرة في ثلاثة، هي: (التشبيه، والمجاز، والكناية)، وهي على النحو الآتي:

الفصلُ الأوَّل- التشبيه: (أركانُهُ، وأقسامُهُ)

التشبيهُ لُغَةً واصطلاحاً:

يُستَشَفُّ من معاني التشبيه **لُغَةً** أنَّه يَتَضَمَّنُ معنى التمثيل، أو المماثلة؛ (**يُقالُ: شَبَّهْتُ هذا بهذا تشبيهاً، أي: مَثَّلْتُهُ به**)، وهذا يَدُلُّ على ما بين الشيئين-المراد عقد المقارنة بينهما- من شَبَهٍ يزداد أحياناً إلى حدٍّ يَخْلِطُ المرءُ بينهما، فتتولّد عن ذلك مشكلات في تمييز أحدهما عن الآخر، وهذا الاختلاط والإشكال الناتج عنه نلمحهُما بوضوح في المعنى اللغوي للتشبيه، فالمماثلة بين أمرين تكون على مراتبٍ تتفاوتُ قُوَّةً وضَعْفاً، على ما سنرى.

وهذا المعني اللغوي للتشبيه ليس بعيداً عن المعنى الاصطلاحي الذي جرى عليه علماءُ البلاغة فيما بعد في تحديد فنِّ التشبيه **اصطلاحاً**، وهو: (**الدلالةُ على مُشاركةِ أمرٍ لأمرٍ آخر في وجهٍ أو أكثر من الوجوه، أو في معنى أو أكثر من المعاني**)، أو هو: (**بيانُ أنَّ شيئاً أو أشياءَ شاركتْ غيرها في صفةٍ أو أكثر**).

أدوات التشبيه:

وهذه المشاركة تَتُمُّ بأداةٍ من **أدوات التشبيه:** كالكاف مَلْفُوظةً نحو: (**محمدٌ كالأسدِ في الشجاعةِ**)، أو مُقَدَّرةً نحو: (**محمدٌ أسدٌ في الشجاعةِ**)؛ لأجل التقريب بين (**المُشَبَّه**) و(**المُشَبَّه به**) في وجه الشبه، فهذا التركيب يتكون من مُشَبَّهٍ هو: (**محمد**)، ومن مُشَبَّهٍ بِهِ هو: (**الأسد**)، ومن أداةِ تشبيهٍ هي: (**الكاف**)، ومن وجهِ شَبَهٍ هو: (**الشجاعة**)، فهذه هي **أركانُ التشبيه** الأربعة التي ينطبق عليها حَدُّ التشبيهِ في اصطلاحِ أهلِ البلاغةِ.

أركان التشبيه:

الركن الأول: المُشَبَّه: وهو أساسُ التشبيه، وكُلُّ عناصر التشبيه تأتي لإبرازِهِ وتوضيحِهِ، وإجلاء هيأته، وإيصال عاطفة الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نحوه؛ لِتَتِمَّ المشاركةُ بين المُبْدِعِ والمُتَلَقِّي، فيتأثَّر القارئ أو السامع به، ويحسُّ بانفعالِهِ، ويدركُ خيالَهُ، ويتفهَّمُ أفكارَهُ، فالمُشَبَّه: هو الطرف الذي يُراد إلحاقُهُ بالمُشَبَّه به، أو هو الطرف المستعار له، كقول الشاعر:

أنتَ كالليثِ في الشجاعةِ والإقـ.....ـدامِ والسيفِ في قِراعِ الخُطُوبِ

فالمُشَبَّه هو الضمير المنفصل (**أنتَ**)، وهو الركن الأساس الذي يجيءُ التشبيه لخدمته، وتوضيح مزاياه وصفاتهِ، وإبرازها بالشكل الذي يفي بالغَرَضِ من التشبيه، ويغلب أن تكون الصورة أو الصفة في المُشَبَّه به أقوى وأظهر وأشهر منها في المُشَبَّه، فصفتا (**الشجاعة والإقدام**) هما أقوى وأظهر وأشهر في **الليث** منها في الممدوح، وكذلك صفة (**قراع الخطوب**) هي أقوى وأظهر وأشهر في **السيف** منها في الممدوح، فتشبيه الممدوح بالليث في الشجاعة والإقدام، وبالسيف في قراع الخطوب يوضّح مقدار صفة الشجاعة عند الممدوح، ولولا التشبيه لما عرفنا مقدار هاتين الصفتين.

الركن الثاني: المُشَبَّه به: وهو الطرف المستعار منه، أو هو الصورة التي يُرادُ بها تمثيل المُشَبَّه، ويجب أن تكون هذه الصورة، أو الصفة في المُشَبَّه به أقوى وأظهر وأشهر منها في المُشَبَّه كما قلنا سابقاً، نحو قول الشاعر:

أنتَ كالبحرِ في السماحةِ والشمـ.....سِ عُلُوّاً والبدرِ في الإشراقِ

فألفاظ **المُشَبَّه به** في هذا البيت هي: (**البحر، والشمس، والبدر**) جاءت كلها لتوضيح صورة المُشَبَّه أو هيأته، لما ينطوي عليه كُلٌّ واحدٍ من هذه المُشَبَّهات به الثلاثة من صفات تبرز المعنى المراد، وتجلوهُ في صُوَرِهِ المختارة، فصفة (**السماحة**) في البحر أقوى وأظهر وأشهر منها في الممدوح، وكذلك صفة (**العلو**) في الشمس أظهر وأبين وأشهر منها في الممدوح، وكذلك صفة (**الإشراق**) هي أقوى وأظهر وأشهر في البدر منها في الممدوح، لكنَّها جميعاً جاءت لتوضيح هذه الصفات في المُشَبَّه.

الركن الثالث: وجه الشبه: وهو الوصف المشترك بين المُشَبَّه والمُشَبَّه به على سبيل الحقيقة أو التخييل، ويجوزُ حَذفُهُ وإبقاؤُهُ.

الركن الرابع: أداة التشبيه: وهي اللفظة التي تَدُلُّ على المماثلة أو المشاركة، وقد تكون ملفوظةً أو ملحوظةً(مُقَدَّرةً)، وَحَذْفُهَا يُفِيدُ تأكِيدَ التشبيهِ، إذ يعني أنّ (المُشَبَّه) و(المُشَبَّه به) في هذا التركيب كأنَّهما متماثلان تقريباً.

وأدوات التشبيه تأتي على ثلاثة أنواع: **حروف:** (الكاف-ويليها المُشَبَّه به دائماً-، وكأنَّ- ويليها المُشَبَّه دائماً)، **وأسماء:** (مِثْلُ، ومَثَلُ، ومُماثِلُ، وشِبْهُ، وشَبِيهُ، ومُشابهُ... وما شاكَلَهَا)، **وأفعال:** (شابَهَ، يشابِهُ، حَسِبَ، يَحْسَبُ، خالَ، يخالُ، ماثَلَ، يُماثِلُ ... وما شاكَلَهَا).

أقسامُ التشبيه:

قَسَّمَ علماءُ البلاغة التشبيهَ إلى عِدَّة أقسامٍ، وقد جَرى هذا التقسيمُ عندهم باعتباراتٍ وحَيثيَّاتٍ مُختلفةٍ، على النحو الآتي:

القسم الأول- ألوان التشبيه باعتبار وجود (الأداة ووجه الشبه) معاً، أو حذفهما معاً، أو حذف أحدهما:

جرى البلاغيون على تسمية التشبيه بأسماءٍ معينةٍ باعتبار وجود الأداة أو حذفها، وباعتبار وجود وجه الشبه أو حذفه، وباعتبار وجودها معاً أو حذفهما معاً، وكما يأتي:

١- **المُرْسَل**: هو التشبيه الذي ذُكِرَتْ فيه الأداة، وسمي مُرْسَلاً لأنّ المنشئ ذكر أداة التشبيه، فأرسلها على طريقة العرب في التشبيه.

٢- **المؤكَّد**: هو التشبيه الذي حُذِفَتْ منه الأداة، وسُمّيَ مُؤَكَّداً لأنَّ حَذْفَ الأداةِ يعنى أنّ الطرفين مُتماثلان تماماً، فالمشابهة مؤكَّدة.

٣- **المُفَصَّل**: هو التشبيه الذي ذُكِر فيه وجه الشبه، وسُمّيَ مُفَصَّلاً لأنّ وجود وجه الشبه يعني أنّ التشبيه جاء مُفَصَّلاً لا غموض فيه.

٤- **المُجْمَل**: هو التشبيه الذي حُذِفَ منه وجهُ الشبه، وسُمّيَ مُجملاً لحذف وجه الشبه، فأصبحت المشابهة مفهومة أو مُدركة على وجه الإجمال، وليس على وجه التفصيل أو التحقيق.

وترتَّبَ على هذه التسميات أنْ تمّ تقسيم التشبيه إلى أربعة أنواع، وذلك وفق ما يكون عليه كلّ تشبيه من إثبات الأداة ووجه الشبه معاً، أو حذفهما معاً، أو حذف أحدهما وإبقاء الآخر، وبذلك يُمكنُ ترتيب هذه الأنواع على النحو الآتي:

١- **التشبيه المُرْسَل المُفَصَّل**: ويُسمَّى: التشبيه التام أيضاً، وسمي مُرْسَلاً مُفَصَّلاً لوجود الأداة ووجه الشبه معاً في المثال الواحد، نحو: (**زيدٌ كالأسد في الشجاعة**)، ونحو قول الشاعر:

كأنَّ أخلاقَكَ في لُطفِها وَرِقَّةٍ فيها نَسِيمُ الصباحِ

فالمُشَبَّه: (**أخلاقك**)، والمُشَبَّه به: (**نسيم الصباح**)، والأداة: (**كأنَّ**)، ووجه الشبه العبارتان (**في لطفها + وَرِقَّةٍ فيها**)، أي: اللطف والرقة، فالتشبيه **مُرْسَلٌ مُفَصَّلٌ**، فهو **مُرْسَلٌ** لوجود الأداة، **ومُفَصَّلٌ** لوجود وجه الشبه.

٢- **التشبيه المُرْسَل المُجْمَل**: وسُمّيَ مُرْسَلاً مُجملاً لوجود الأداة، وحذف وجه الشبه في المثال الواحد، نحو: (**زيدٌ كالأسد**)، ونحو قول الشاعر:

وأرضٍ كأخلاقِ الكرامِ قطعتها وقد كحَّلَ الليلُ السماكَ فأبصرا

فالمُشَبَّه: (**الأرض**)، والمُشَبَّه به: (**أخلاق الكرام**)، والأداة: (**الكاف**)، أمَّا وجهُ الشبه فمحذوفٌ، وحَذْفُ وجه الشبه يدعو الإنسان إلى التفكُّر في الصفة أو الصفات المشتركة التي جعلتِ المُشَبَّه مُماثلاً للمُشَبَّه به، مما يُضفي على الصورة لوناً من الغموض والإيحاء، ويفسح المجال للتخيّل والتصوّر، خصوصاً إذا كان المُشَبَّه به ذا صفاتٍ مُتعدّدة، ومن أمثلة التشبيه المُرْسَل المُجْمَل أيضاً قوله-ﷻ-: ﴿**وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ**﴾[الرحمن:٢٤]، وقوله-ﷻ-: ﴿**فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾[الحاقة:٧].

٣- **التشبيه المؤكَّد المُفَصَّل**: وسُمّيَ مُؤَكَّداً مُفَصَّلاً لحذف الأداة، ووجود وجه الشبه في المثال الواحد، نحو: (**زيدٌ أسدٌ في الشجاعة**)، ونحو: (**العالِمُ سِراجُ أُمَّتِهِ؛ في الهدايةِ وتبديدِ الظلام**).

فالمُشَبَّه: (**العالِم**)، والمُشَبَّه به: (**سراج أمته**)، ووجه الشبه: (**الهداية وتبديد الظلام**)، أما الأداة فمحذوفة، فالتشبيه في هذا النوع الذي حُذِفَتْ فيه الأداة يُعَدُّ أقوى؛ لأنَّ وجود الأداة يُوحي بوجود طرفين أحدهما يشبه الآخر، أما حذف الأداة فيُوحي بأنَّ الطرفين شيءٌ واحدٌ لشدَّةِ المشابهةِ؛ هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ وجود وجه الشبه يجعل المشابهة محصورة في الوجه المذكور دون سواه.